

الصراع الثقافي: إزاحة أم إزالة

العالم يعج بثقافات مختلفة ليس اليوم ولكن منذ آلاف السنين، منذ باشر الإنسان بإقامة الحضارات، فكل حضارة لها طابع ثقافي مميز، ومن هنا يحدث (الاحتكاك) كانت (العزلة) تخفف الاحتكاك، لكن مع تطور وسائل (الاتصالات والمواصلات) زادت الاحتكاكات وكثرت، وقد وجدت الفيلسوف الفرنسي (ميشيل فوكو) يتحدث في مؤلفه (نظام الأشياء) عن (الإزاحة المعرفية)^(١)، وما يترتب عليها من (فراغ معرفي)، وقد ربط بين عملية (التحول المعرفية) وبين وجود حالة من (التشرذم) في الفكر الفلسفي، ولاحظ: أن الرؤية الكلية التي كانت تجمع (الكون والله والإنسان) قد تم (اختزالها) عبر مراحل وأحقاب زمنية، وذلك من خلال استخدام مفهوم (الإزاحة المعرفية)، وهكذا فقد أزاح العقل بالمفهوم الكانطي (العالم الخارجي) في مدة معينة، ثم أزاح (العالم المادي الاقتصادي) ثم أزاح (وجود الله وعالم الميتافيزيقيا) في مدة أخرى، وأخيراً جاء دور (اللغة والنص) ليزيحا (العقل والاقتصاد معاً).

وهكذا تحول (خطاب ما بعد الحداثة) إلى اللغة، فوقع في أسارها حتى أضحى ذا (لهجة فردية شخصية) لا أحد يفهما سوى المتحدث نفسه... ا.هـ.

(١) المرجع السابق ص (٤١٥).

هذه الإزاحة أو الإزالة مهما تعددت أليس (الصراع) هو الوسيلة أم التناسخ، كل جديد ينسخ ما سبقه ويحل مكانه، حتى يأتيه الدور فيحال على (التقاعد) والتقاعد مصطلح ظريف جداً فهو يتكون من (مقطعين) الأول (مت) والثاني (قاعد) والشاعر يقول:

من ثم يميت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

الذي أفهمه من فكرة (فوكو) أن هناك صراعاً أو تصارعاً، الفائز يدفع الخاسر ويحل مكانه، حتى يأتيه من يدفعه أو يصرعه أو يزيهه أو يزيحه ويحتل مكانه، إنها سنة التداول التي أطلقتها القرآن الكريم: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

فمن يصل القمة في التحضر أو التقدم أو الغنى أو الرقي يبقى، ما دام لا يجد من يزيحه ويحل مكانه، فإذا ضعف أو تخلف جاءه (السيل) وأبعده، ليحل مكانه (مستحق جديد) وهكذا، فيا من يضربهم (التخلف) لا تياسوا، فدوركم قادم، متى أخذتم بأسباب التقدم والرقي، ويا قادة العالم لا يبتركم ما أنتم فيه، فالسيل سيجرفكم ويقتلعكم من (القمة) لي طرح بكم في القاع، هذه سنة الله تعالى في الكون، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فعلى الكل أن لا يبتر ولا يياس: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرَّيَ اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

عندما تتصارع الحيوانات

لاحظت أن الحيوانات تعيش بسلام، لكنها تتصارع وتتعارك إذا حضر الطعام، وفي كندا نوع من الغزال قرونه مثل أغصان الشجر، إذا تصارع تشتبك (قرونه) ولا يستطيع فكها، فتكون نهايته أن يموت المتصارعان، وهما يشتبكان...

الإنسان يتصارع على الطعام وغيره، ولعل اختراعه للاستعمار هو لون من ألوان (الاستحمار) على حد تعبير د. علي شريعتي.

د. عبد الوهاب المسيري^(١) يرصد جشع (السيد المستعمر) فهو لا يحارب ولا يتصارع من أجل الطعام، لكنه يسرق طعام الفقير، ويستعذب ذلك، ويعدده (شطارة ولوذعية)، يقول المسيري: منذ أن قام هذا النظام الدولي باقتسام العالم وهو يصول ويجول، لكنه لا ينشر العدل ولا الاستتارة، بل انغمس في عمليات (إبادة منهجية) لم يعرفها التاريخ البشري من قبل، مثل إبادة سكان الأمريكيتين، وعمليات ترانسفير (نقل السود الأفارقة)، ونقل العناصر البشرية، غير المرغوب فيها، مثل (المجرمين، اليهود، الفائض البشري، الثوريين، الفاسدين اجتماعياً) تم نقلهم إلى (جيوب استيطانية)، ولقد خاض هذا

(١) مجلة قضايا دولية، العدد (٢٥٦) ص (٢٦) ١٤١٥/٦/٢٤هـ.

النظام الدولي حروب الأفيون الأولى والثانية ضد الصين، كي يحقق أرباحاً اقتصادية كبيرة، ثم قام بنهب ثروات الشعوب، بشكل منظم لم يعرف له التاريخ مثيلاً.

ومع ظهور الحركات الوطنية للتحرير في المستعمرات، ابتداءً من أربعينيات القرن العشرين، فقد قام النظام (الأمبريالي العالمي) بضرب هذه الحركات بعنف شديد، وفي الخمسينيات حاول الالتفاف عليها، بأن منحها (استقلالاً اسمياً)، فأسس نظاماً سياسية (عملية) مستعدة لتمنحه امتيازات تفوق ما كان يحصل عليه من (استعمار)ه العسكري المباشر.

إن تاريخ النظام العالمي هو تاريخ (النظام الصناعي العسكري) الأمبريالي الغربي، الذي حول العالم إلى مصدر (للطاقة الطبيعية والبشرية الرخيصة وسوقاً لبضائعه)، وبرغم تغير الأشكال من استعمار لآخر، إنه نظام عالمي واحد، يحاول أن يفرض (بالقوة) حالة التفاوت بين الشعوب والأمم.. وقد قام هذا النظام بغرس كل (أنواع الاستعمار) خصوصاً في عالمنا (العربي)، كما قام بنهب هذه المنطقة، إما مباشرة - أيام الاستعمار المباشر - أو من خلال (التحكم) في أسعار المواد الخام، خصوصاً (النفط)، وعن طريق بيع (أسلحة) ببيلايين الدولارات (لنظم) يضمن هو بقاءها واستمرارها، مع علمه أنها غير قادرة على استخدام هذا السلاح... ا.هـ.

إنه (استحمار) من قبل الإنسان لأخيه الإنسان، وأي

استحمار؟

لو كان الغرب الصناعي محتاجاً لهان الأمر، أما إنه متخم، يذهب ويسلب من فقير فهنا الطامة، ولقد أجاد سارتر حين حمل الغرب شعوباً وحكومات جريمة النهب والسلب، ليبنى مدناً ومطارات، وشوارع وجامعات، بينما المستعمرات تشكو الحاجة لأبسط أمور الحياة، أتحت لي فرصة زيارة أفريقيا شرقاً وغرباً وجنوباً، فرأيت بأم عيني عواصم الشوارع الفرعية غير (مسفلتة) وغير منارة، والمياه الصحية تجري (مكشوفة) غير مغطاة، والفقير الأسود يشمل أكثر من تسعين بالمائة من هذه الشعوب.

استعمرت فرنسا (جزر القمر) قرناً ونصف القرن، فلما خرجت لم تترك مدرسة ولا مستشفى ولا ماكنة لتوليد الكهرباء، فماذا كانت تفعل خلال (١٦٠ عاماً)؟

شركات النفط في العراق كانت تدفع للعراق (٤) بنسات عن كل برميل، الشركات الغربية مازالت تدفع لنا (٥٠، ٦٠) دولاراً للبرميل، وهي تتباكي وتنوح، لكنها تدفع للدول الغربية (كضريبة) (٢٠٠) دولار دون بكاء ولا لطم للخدود، إنهم ينهبون ولا يسرقون، السرقة في السر والنهب في العلن، وهناك من يعين ويبارك على قاعدة (احمليني أحملك، استر عليّ أستر عليك).

من الإزاحة إلى الإزالة

تقدم الحديث عن (الإزاحة) مصطلح متواضع تزيح إنساناً وتحتل مكانه، لكنني أجد مصطلحاً (خشناً) هو الإزالة، تصارع فرداً أو تصارع جماعة أختها فتزيلها، تقتلعها من جذورها وتبعدها.. الغرب يقصفها بالمصطلحات يوماً...

الأكاديمي العربي الأصل د. مازن موفق الأستاذ في جامعة (كاليفورنيا) الأمريكية يتحدث عن التنحية وشروطها، وعن القطيعة مع التاريخ والمجتمع البشري، فيقول^(١): إن التنحية تنظر لنفسها (بغور بالغ) في كونها وضعت (نهاية للتاريخ)، فلم يعد ممكناً أن تكون هناك منظومة (أفضل مما أخرجته الوضعية المادية)، كما تؤمن بمفهوم (التقدم الانفرادي) وعلى (الآخرين) أما (الاتباع التقليدي) فإن مانعوا فتجب (إزالتهم)، وتترافق نظرة (التقدم) على شكل خط بياني (صاعد) مع (الازدراء) لكل ما سبق من تجارب البشر.

ولو سلمنا بأطروحة (التقدم الخطي) فإن المنطق يقتضي احترام (النقاط الأولى) على أنها أفضل لما بعدها، والتواضع لنقطة (الحاضر) على أن هناك ما بعدها، ولكن يضع مفهوم التقدم (نقطة فصل نكدي) مع الماضي بوصفه (مكروهاً

(١) إشكالية التنحية/ لجماعة من الباحثين من (٣٤) طبعة مركز البحوث

بقطر عام ٢٠٠٨م.

مذموماً محتقراً)، وهو ما استطاعت النهضة الأوروبية أن (تطلقه) من غير رجعة حسب ظننا وزعمها.. وهكذا.. فإن (المفهوم التنموي) يقبع (ذهنياً) بين نقطتي (فصل): الأولى تمثل (ماضٍ تافه متخلف)، ونقطة فصل مستقبلية، قد وصلها الغرب فأحكم (ختم نهاية التاريخ)..

وهكذا ترعرع مفهوم (التمية الحداثية) في بيئة (غرور صبياني) تجهل إنجازات كافة الحضارات السابقة، التي مهدت للحضارة الغربية، بشكل مباشر أو غير مباشر، فحضارة الغرب (تزدري الأوضاع) للحضارات الأخرى، التي لم توافها فرصة (إتمام رحلتها) فتوقف إنجازها عند نقطة معينة.

ويشار هنا إلى أن أثر ذوي العلم من المؤرخين وغيرهم ممن يرفض المفاهيم (الفجة للتقدم)، التي (ينعق بها) الساسة ويرردها العامة).. إنهم يؤكدون: أن جملة من الشروط الموضوعية كانت تقف على مسرح التاريخ البشري وبين أقوام وحضارات مختلفة، ثم (مالت الكفة) لصالح أوروبا، أي أن (الكمون التغييري التحسيني) كان موجوداً في كتل (حضارية مختلفة)، ولم يكن مقتصرًا على أوروبا، كما يذهب بعضهم - ربما أصبح القول الراجح -: إن حدوث النهضة في أوروبا لم يكن أكثر من تحقيق فرصة مواتية...

فإذا كانت هذه بعض صفات (التنمية) - في مفهومها الغربي - فإنه تجب الإشارة هنا إلى إشكالية إطلاق مصطلح التنمية على مصطلح (DEVELOPMENT)، فإن كلمة التنمية ذات (ظل لطيف بالعربية)، والأليق وصف التنمية ضمن سياقها الحضاري الحدائي بأنها (سرطنة) نظرًا لتكاثرها العنيف... أهـ.

تتكاثر الاكتشافات وتتزاحم، فمن جنون البقر إلى جنون العظمة إلى نهاية التاريخ، ونهاية الأدب ونهاية الجغرافية، إلى التقدم المطرد... إلخ. من ألف باء الحضارة: أن اللاحقة تبني على السابقة وتزيد، ولكل حضارة إبداع يحق لها أن تباهي به، فلماذا تتنكر حضارة اليوم لكل حضارات العالم وتحتقرها، وتحتقر أهلها، ولا تكتفي بذلك حتى تدخل مع ما تبقى منها في صراعات ربما كان الدافع الأكبر جنون العظمة ومحاولة السيطرة الكاملة، أهذا هو الأفضل لدى الغرب وحضارته وإنسانيته؟

معطيات حضارية عظيمة

يوجد للبشر ألف سبب للصراع والتطاحن، فهل من (معطيات جديدة) يقدمها الغرب للتنازع والتهاوش؟ ألا يكفي الموجود؟

هناك (خطة غربية) عمرها جاوز القرن، لكن دولابها مازال يدور كدوران المغزل، وما دام (يفزل) لكن ليس صوفًا ولا قطنًا، ولكن (فتن) كقطع الليل المظلم - كما ورد في السنة المطهرة -.

ملخص القضية^(١): (بيزمان) رئيس الحكومة البريطانية عام ١٩٠٧م - قبل الحرب العالمية الأولى - شكل لجنة لدراسة الأسباب التي تعمل لإسقاط واندثار (الإمبراطوريات) الكبرى كي تتجنب الإمبراطورية البريطانية هذا المصير، وقد نشرت اللجنة توصياتها، التي جمعت أبرز خبراء بريطانيا في العلوم السياسية والتاريخ والاقتصاد، ومن أهم التوصيات:

- إن أخطر المناطق - على النفوذ البريطاني - تلك المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي - أي العالم العربي - لأن شعبها تتوافر لديه كل خصائص (الأمة الواحدة)، والخطر كل الخطر أن يدرك شعبها هذه (الحقيقة)، وأن يسعى لإقامة دولة متحدة، تعيش في هذه المنطقة الحيوية من العالم.

ومن أجل منع قيام هذه الدولة العربية، تقترح اللجنة ما يلي:

(أ) تقسيم المنطقة إلى دول صغيرة، تقوم على أساس القبلية أو العرقية أو الطائفية... ويشعل بينها (الخلاف) قدر المستطاع، وأن تفصل عن الشعب الزنجي والبربر، الواقع جنوبها.

(ب) تعميق (التجزئة) بينها جغرافياً وروحياً وسياسياً واقتصادياً حتى تصبح - هذه الأمور - وكأنها شيء طبيعي.

(ج) إقامة (حاز بشري غريب) في المنطقة، يكون شرق السويس، ليفصل بين شرق وغرب هذه المنطقة، ثم يستنزف ثرواتها..

(١) صحيفة الخليج العدد ٦٤٩٧ في ٣/٣/١٩٩٧م.

هذه (الخطة الحضارية) مقررة قبل أكثر من (قرن)،
ويجري تنفيذها بنداً بعد بند..

يلق كاتب المقال: إن العرب يتابعون ويتأملون دون القيام
بأي فعل مضاد، بل أحياناً كانوا شركاء عن وعي أو دونه، في
تحقيق أغلب بنود هذه التوصيات وغيرها... أ.هـ.

واليوم فالمطلوب للعرب أن تقسم دولهم من السودان إلى
العراق ومن الصومال إلى فلسطين، وفي نفس الوقت أقام الغرب
إسرائيل، فتجمع كل يهود العالم وتهدد المنطقة بحروب متصلة
كل (١٠) سنوات.

إن الغرب اليوم يتفنن بإشعال الحروب والصراعات
المحلية، ولديهم (كلب مسعور) مستعد لنهش الكل، فإن لم يجد
راح (يعوي) كما يفعل الكلب عندما يجد صورته في الماء!

ومع ذلك يتساءلون: لماذا يكرهنا العالم ونحن طيبون؟

إن العالم اليوم يعاني من صراعات وتوترات لا نهاية لها،
والمطلوب إطفاء الحرائق وليس (صب الزيت عليها)، ولا تهيج
الأقليات باسم (تقرير المصير)، فمتى فتح هذا الباب فلن
يغلق، ففي العالم (خمسة آلاف) قومية تشكو وتتوح ليل نهار،
فإذا وجدت من يشجعها فستشعل صدامات وصراعات ومن لا
يصدق فليُنظر للصومال وأفريقيا وحزب العمال الكردستاني،
ففي ذلك عبرة، وأي عبرة؟!

عندما يتفلسف اللص

الإنسان يستطيع - بكل سهولة - أن يخفي مطامعه وطموحاته وجشعه، ولا يعجزه أن يفلسف النهب والسلب، وشن حروب محلية وكونية (جان جاك سرفان) يصور هذا الأسلوب الحضاري على الوجه الآتي: لا رأسمالية دون أسواق خارجية، ولا أسواق خارجية دون الوصول إلى مرحلة (معينة من تطور الإنتاج)، ولا يمكن تصور أسواق خارجية دون سيطرة سياسية واقتصادية للدولة الرأسمالية على هذه الأسواق وحمايتها^(١) ... أ.هـ.

قضية منطقية (محبوكة)، فأين المفر؟

وهل (الرأسمالية) قدر رباني على العالم قبوله أو الموت جوعاً وعطشاً ونكدًا؟

دكتور رجاء جارودي يصور (خطة النهب) على الوجه الآتي: يرسل الغرب العلماني (المبشر الديني)، ثم يتبعه الشركة التجارية، ثم يرسل (الجيش) أخيراً.

الرئيس الكيني (جو موكنياتا) يرسم صورة للنهب في بلاده، فيقول: جاء الإنسان الغربي إلى بلادنا يحمل (الإنجيل) وكانت الأرض بأيدينا، وبعد قليل صار الإنجيل بأيدينا، وصارت أرضنا بأيدي الإنسان الغربي.

(١) التحدي العالمي/ جان جاك سرفان، ترجمة إبراهيم العريس ص (٣٦)، طبعة أولى.

الفيلسوف نيتشه يقول: إن الغرب (صك شعاراً): اجمع اجمع ذلك هو الشريعة والقانون... يقصد اجمع المال فهو كل شيء... من هذه اللعب: ارفع يا غرب صادراتك واهبط إلى الأرض بثمن صادرات العالم الثالث، وانقذ (الجوعى) لتكتب في سجل المحسنين..

الغرب أو أغنياؤه من (٢٠٪) يسيطرون على ٨٠٪ من ثروة العالم، وبعض الشركات الكبرى مثل شركات النفط والسيارات والطائرات وشركات الأدوية رأسمال شركة واحدة يزيد على ما تملكه عشرات بل مئات الدول الفقيرة، ومع ذلك فثمة سياسة (مخيفة)، فصادرات الدول الصناعية في صعود مستمر، أما صادرات الدول الفقيرة فهي في هبوط متواصل، وهذه عينة من (تصنيع الفقر) والكل ساكت، وربما (يستلذ) هذه اللعبة^(١):

- ١- تصدر بورما (الرز) ويشكل ٨٠٪ من صادراتها.
- ٢- تصدر الملايو الكاوشك الطبيعي بنسبة ٨٠٪ من صادراتها.
- ٣- تصدر نامبيا (الفول) ويشكل نسبة ٩٠٪ من صادراتها.
- ٤- تصدر فنزويلا (النفط) ويشكل نسبة ٩٢٪ من صادراتها.
- ٥- دول الخليج مثل فنزويلا.

إن هذه الدول ومثلها كثير تسير بخط واضح نحو الفقر يوماً بعد يوم، فحياة شعوب هذه البلاد ترتبط بهذا الصادر أو

(١) تخوفهم أعمق: د. عبدالكريم بكار ص (٥١) طبعة ١٤١٥هـ.

ذاك، ترتفع العائدات مع الأسعار الجيدة، وتهبط أسفل سافلين إذا هبطت الأسعار.

وهذه عينة من الأسعار، مما يصنعه الغرب الصناعي، ويصدره لهذه البلاد وغيرها:

١- ماليزيا كانت تدفع ثماناً لسيارة (جيب) عام ١٩٨٥ م ما يعادل (٤) أطنان كاوشك طبيعي، بعد (١٠) سنوات صار على ماليزيا أن تدفع ثمن (١٠) أطنان ثمناً لسيارة واحدة..

٢- الدول التي تصدر (البن) كان ثمن (١٤) كيساً يشتري سيارة (جيب) وبعد (٨) سنوات على هذه الدول دفع ثمن (٣٢) كيساً كثمن لسيارة واحدة.

٣- من يريد الحصول على (٦) جرارات فعليه أن يدفع ثمن (٢٥) طنناً من المطاط عام ١٩٨٠ م، فصار ثمن (٢٥) طنناً من المطاط الطبيعي يساوي ثمن (٢) جرار فقط.

وأخيراً كنا في الثمانينيات نشترى السيارة الأمريكية أو اليابانية الصغيرة بمبلغ (٢٠) ألف ريال سعودي، واليوم ندفع (٧٠-٨٠) ألف ريال للحصول على سيارة جديدة.

إن بعض الصادرات - في العالم الثالث - تموت مثل صناعة (الجوت) في بنغلاديش، والصناعات المحلية تعجز عن منافسة الصناعة الأجنبية جودة وأسعاراً، فتموت وتورث المجتمع بطالة

وفقرًا، حتى كتب أحد أساتذة جامعة كندية واسمه (ميشيل) كتابًا جعل عنوانه (عولة الفقر)، يشرح فيه كيف يصنع الفقر وينشر في الأرض.

إن هذه السياسة ستثير من الصراعات والتوترات في العالم ما هو في غنى عنه بل لديه الكثير مما على العالم التخلص منه قبل حدوث (انفجارات) كبيرة تهز العالم هزًا وتقوض سلمه، وتدفعه نحو حروب وثورات لا نهاية لها.

متطلبات القيادة الحضارية

شهد العالم قيام (٢٦) حضارة - على حد قول تونيبى - كل حضارة تنمو وتتقدم ثم تهاجمها الأمراض فتفسح الطريق لحضارة جديدة كي تحل مكانها وتتولى الريادة والقيادة (مجال مفتوح) وتداول مشروط وليس ثمة (فيتو) يمنع.

يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلْهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

فإذا خسرت الأمة القائدة صفاتها الجيدة فلا بد من التنحي.. والسؤال: ما هي متطلبات هذه الريادة؟

د. برهان غليون أستاذ علم الاجتماع - السوري الأصل الفرنسي الجنسية - يتناول هذه المتطلبات قائلاً^(١): في كل

(١) الدولة والدين ص (٣٠٥) الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

مرة تغيرت فيها (موازن السيطرة) العالمية، كانت الثقافات للجماعات التي نجحت في احتلال موقع (الصدارة) هي تلك التي أظهرت استعداداً أكبر (للتضحية والفداء وميلاً أكبر للمغامرة والبحث) مع شغف أكبر وأقوى (بالجديد والمبتكر) ورغبة أعنف في اجتراف المجهول، وكان التعويض الأساسي لهذه الجماعات (القائدة) بانية المدنيات أو أنساق القيم الكبرى، التي تتغذى منها، هو (ترسيخ أقدامها في التاريخ)، وجعلها ركائز ثابتة له، وطبعها بطابعها، ومن ثم ضمان خلود ثقافتها وقيمها فيه، مع تحسين مواقعها في الحضارة، مما يعني تحسين قدرة الجماعات التي ترتبط بها على التحكم في التاريخ وضمان مستقبلها فيه، وضمان استمرارها. أما الجماعات التي لم تستطع أن تكون (ثقافات تشجع على التضحية) ولم تستطع أن تشارك مشاركة كبيرة في (تكوين الحضارة) فإنها تصير - في الأكثر - عرضة للذوبان في غيرها، أو تكون (الأضعف استعداداً) للتحكم بالتاريخ، وكذلك تكوين مجتمعات مستقرة... أ.هـ.

باختصار عناصر الريادة والقيادة (كسبية) وليست فطرية، فكل من جد وجد، وربط التحضر بعنصر معين من البشر خرافة وأسطورة، فكل من تطلع لبناء حضارة وعلم بالشروط والمستلزمات وأخذ بها تقدم وتحضر، وكل من أخذ بأسباب التأخر والتخلف تأخر وتخلف، وهذا من عدالة السماء، فلا محاباة ولا يحزنون..

عندما تختفي العنصرية

العنصرية مرض قتال ابتليت به البشرية لقرون، وما زالت أمم مصابة بجنون العظمة، فهي الخير والحضارة وكل ما تصنعه فهو نبيل وعظيم، وكل ما لدى الأمم الأخرى لا يساوي شيئاً، ولا يستحق ذكراً.. كاتبة فرنسية اسمها (صوفي بيس) لها كتاب عنوانه: (الغرب والآخرون... تاريخ من الهيمنة)^(١).

الكاتبة حماها الله من مرض (العنصرية): لذا راحت تسمي الأشياء بأسمائها، وتناقش قومها فيما أطلقوه من أحكام، وهم تحت تأثير (العنصرية) وربما جنون العظمة أيضاً. وأفضل تلخيص ما جاء في نقاط:

- ١- لقد هيمن الغرب على العالم ابتداء من القرن (١٦).
- ٢- هذه الهيمنة صارت قانوناً أو بدهية - غير قابلة للمناقشة -.
- ٣- ينظر الغرب للعالم من خلال هذا (التفوق).
- ٤- مطلوب من العالم أن يسلم بكل ذلك.
- ٥- بسبب هذه الرؤية فلا حوار ولا نقاش.
- ٦- تسأل الكاتبة: هل الغرب مستعد لتغيير نظرتة؟
- ٧- سؤال آخر: هل أهل الجنوب مستعدون للتطور العقلاني والتنوير؟

(١) جرى استعراض الكتاب من قبل هاشم صالح، الشرق الأوسط في ٢٠٠٢/٣/١٢ م.

- ٨- سؤال ثالث: هل يمكن التوصل إلى قيم كونية مشتركة تكون مقبولة من كافة الثقافات؟
- ٩- تعتقد الكاتبة أن الغرب أسس ذاته في (عصر النهضة) على أساس رفض كل ما ليس (بغربي)، ومن هنا رفض المصادر الشرقية وتأثيرها مثل الحضارة البابلية والكلدانية والمصرية والهندية، وهذه الحضارات غذت (الفكر اليوناني).
- ١٠- راح الغرب يتحدث عن (المعجزة اليونانية) وكأنها شيء نزل من السماء، بحيث لم تتأثر بأحد.
- ١١- لقد حذفوا واستبعدوا (الإسلام وحضارته) وكل ما جاء به، علماً بأن الغرب قرأ الكثير من التراث اليوناني عن طريق المسلمين، وليس بطريقة (مباشرة).
- ١٢- يريد الغرب القول: لسنا ندين لأحد في نهضتنا.
- ١٣- يطرح الغرب: إن عصر النهضة (جب ما قبله)، وهو يشكل قطيعة (مطلقة) مع العصور الوسطى.
- ١٤- من المعروف أن العصور الوسطى كانت عصور نهضة المسلمين، ومن هنا جاء سبب الإلغاء.
- ١٥- يؤكد الغرب ويردد تلاميذه: أن الحداثة ابتدأت في الغرب، وكذلك التاريخ، ومن هنا جاء الانطلاق، دون علاقة بزمن سابق.
- ١٦- لقد كان القرن (١٩) هو قرن (سيادة أوروبا) على العالم كله... أ.هـ.

الغرب - بشكل عام - معجب بنفسه وحضارته، وهو يريد قيادة العالم حسب قيمه وثقافته، والويل لمن يرفض هذه القيم وهذه القيادة..

مطلوب من الغرب القليل من التواضع والكثير من العدالة، والكفر بالعنصرية وبمن يؤمن بها ويجعلها الأساس في علاقاته مع غيره.

مأساة الحضارة الغربية

كتب هاشم صالح عن مأساة الحضارة الغربية، فركز على الانفصال بين الدين والعلم، وألخص ما جاء في المقال^(١):

١- تشعر شخصيات كثيرة روحية وعلمية وفكرية في الغرب (بكثير من القلق) من الاتجاه (الوضعي العلمي) الذي لا يعترف إلا (بالتركيبية المادية) وينكر ويتجاهل كل ما سواها.
٢- هذا الاتجاه ينكر (القيم الروحية) بحجة أنها لا يمكن البرهنة عليها تجريبياً في المختبر.

٣- إن هذا التقديس للعلم والمغالاة فيه، مع التسليم بأنه صانع حضارة اليوم؛ لذا فالإشكال ليس في ذات العلم وإنما في الانحراف في (النزعة العلموية) وفي (الوضعية الجافة).
تحديداً... ليس الإشكال في (ذات العلم) بل في فلسفته التي يمكن أن نطلق عليها (العلموية).

(١) صحيفة الشرق الأوسط ٥/٤/٢٠٠٢م.

- ٤- تقوم الفلسفة الحديثة على تركيزها على دراسة الإنسان والحياة والكون، ومن هنا جاءت نهضة (العلوم) .. لكن هذا التقدم جاء على حساب حقائق أخرى تتجاوز الإنسان، وتعلو عليه.
- ٥- هناك حقائق - غير الحقائق المادية والقوانين العلمية - جرى تجاهلها.
- ٦- يمكن القول: إن فلسفة (القرن الوسطى) قد أهملت العلم المادي، وجاءت الفلسفة الحديثة لتهمل الجانب (الروحي المتعالي)، وهكذا انتقلنا من (شطط) لآخر، ومن إهمال لإهمال آخر، ومن غلو لغلو آخر..
- ٧- والآن أن الأوان لتصحيح الوضع، خصوصاً بعدما وصلت الحداثة إلى مداها في الاتجاه المادي..
- ٨- كذلك بلغت (الشهوات الحسية الاستهلاكية) وحتى الشذوذ النهائية.
- ٩- وهكذا بدأ أفق الإيمان غائباً كلياً عن ثقافة الغرب، بل لم يعد (فلاسفة) الحداثة يذكرونه إطلاقاً، وهم يعدونه من القديم الذي عفا عليه الزمن... ففلاسفة مثل سارتر وفوكو وهابرو وأمثالهم نسوا أو تناسوا الإيمان.
- ١٠- إنه لا يخطر ببال أحدهم أن يطرح قضية الإيمان أو الدين أو الروحانيات، والحجة: لا يوجد في الكون سوى الوضع المادي الذي نعيش فيه.

١١- علمًا بأن فلاسفة (الحدائث الأوائل) كانوا يقرون بوجود علاقة بين العلم والإيمان، فديكارت مثلاً يبرهن عقلاً على وجود الله، وخلود الروح...

١٢- من هنا جاء هجوم (باسكال)، إنه ذلك العبقري الذي أعطى ثقة في نهاية المطاف للإيمان (على حساب العلم).

١٣- إن علماء كبار مثل كانط وهيغل يتحدثون عن الإيمان والدين، دون أن يعدوا ذلك شيئاً رجعيًا، وقد قدموا تصورًا مطلقًا أو معصومًا عن العقل، لدرجة أن حل محل الدين في ثقافة الغرب.

١٤- إن الفلسفة (الوضعية) - التي تسيطر على الغرب اليوم - لا تبعد الإنسان عن الرؤية الدينية للعالم فقط، وإنما راحت تسييه كل اهتمام أخلاقي. فالعالم في مختبره - من كثرة لهاته - وراء مكتشف علمي جديد - ينسى غاية العلم، وهي (خدمة الإنسان)، بل بلغ الغرور درجة مخيفة، حيث راح يفكر باستنساخ الإنسان، فأين صارت الأخلاق؟ ألم تنفصل كليًا عن العلم؟

١٥- ألم ينفصل العلم عن الأخلاق وينحرف؟ ألا ينبغي وجود ذرية روحية؟ علينا أن نقول للعلم: ما هي الحدود التي ينبغي له أن يتوقف عندها!

١٦- إن العلم - لو لم ينفصل - عن الإيمان (في الغرب) لما وصلت الحضارة إلى ما وصلت إليه من (نزعات عدمية)

خطيرة، إذ لم تعد هناك (قيم أخلاقية) مضمونة أو مؤكدة..

١٧- لقد وصلنا إلى أن كل شيء يتساوى مع كل شيء، فالشدوذ الجنسي صار مشروعاً أو طبيعياً، حتى راح (الشواذ) يطالبون بحقهم في تبني الأطفال، إنها انحرافات كبيرة - رغم الإنجازات الكبيرة -.

١٨- هناك اليوم من يشخص الأزمة الغربية على أساس أنها متولدة عن ذلك (الانفصال النكد) بين الإيمان والعقل الفلسفي، على مدار ثلاثة قرون مضت أخيراً.

١٩- معلوم أن العقل متى انفلت - من عقاله - وتحرر من كافة الروابط، ومتى ما حرم من (نور الإيمان) فإنه يصبح مجنوناً، ويخبط خبط عشواء.. وعندها ستكون النتائج كارثية، وهذا ما حصل، حتى شهد القرن العشرين حربين عالميتين، ومجازر استعمارية كمثل ما حصل لهيروشيما ونكازاكي من مدن اليابان، التي ضربت بقنابل نووية، كما أفرزت الحضارة الغربية النازية الألمانية والفاشية الإيطالية والصهيونية اليهودية.

لقد أحصى المستشار بريجنسكي قتل أكثر من (١٧٦) مليوناً من البشر خلال القرن العشرين.

٢٠- يتساءل الكاتب: هل سيعود الغرب إلى الإيمان من جديد؟

وهل سيتخلى عن عنجهيته وغروره؟

هل سيتوصل إلى أن (الإيمان) متى كان واسعاً مستنيراً، فإنه لا يضير العقل ولا يحد من حريته، بل يفتح أمامه آفاقاً واسعة من الأمل، ويخلع على أعماله بعداً روحياً أخلاقياً مفيداً... ا.هـ.

الإنسان: جسم وعقل وروح وعواطف، فمتى نمت هذه المكونات نموًا متزامنًا أنتجت إنسانًا (متوازنًا)، فإذا نما مكون واحد على حساب غيره فقد الإنسان (التوازن)، وهذا يصدق على الحضارة كذلك، فتفقد توازنها عند توسع مكون وضمور آخر، وهذا ما تشكو منه حضارة اليوم.

العقل صنم الفلاسفة الأكبر

يقول نيتشه^(١): إن صنم الفلاسفة الأكبر هو العقل، آمنوا به وبقدرته على اكتشاف (الحقيقة والوجود)، فجعلوه الحاكم المطلق، وأعدوا قوانينه هي قوانين الوجود، ثم فصلوه عن الحياة، بحيث جعلوه فوق (الوجود) وليس جزءاً منه، يعبر عن ناحية من نواحيه العديدة.. البعض يقول: إن مبادئه (متعالية قبلية) أي سابقة على التجربة، وعليها تقاس (محتويات

(١) نحن والصديق اللدود للكاتب، ص (٤١) طبعة أولى ١٤١٧هـ، دار الحكمة.

التجربة) وبها وحدها تدرك، وقال بعض آخر: إن العالم جميعه داخل العقل وفي باطنه، فريق ثالث يرى أن التطور التاريخي ليس سوى العقل، إذ هو يعرض نفسه، وهكذا جعلوا من (العقل إلهًا) ذا سلطة إلهية وجوهر إلهي... أ.هـ.

وقد وجدت في (أرشيبي المتواضع) نصوصًا تدور حول العقل وقدراته، ما يستطيع إدراكه وما هو فوق ذلك...

فهذا الإمام الشاطبي يقول^(١): ليس كل ما يقضي به العقل يكون (حقًا)؛ لذا نرى الناس يرتضون اليوم (مذهبًا) ثم يرجعون عنه غدًا، ثم يصيرون بعده إلى رأي ثالث، ولو كان كل ما يقضي به (حقًا)، في إصلاح معاش الخلق ومعادهم، لم يكن لبعثة الرسل عليهم السلام فائدة، ولعدت الرسائل (عبثًا) لا معنى له، ومعلوم أن كل هذا باطل... أ.هـ.

ابن العربي يبحث في إمكانات العقل، فيقول^(٢): الزعم بأن العقل قادر (قدرة مطلقة) على إدراك أو تحصيل كافة المعلومات، دعوة حمقاء، لا تقوم على ساق، إذ إنه ليس لنا أن ندعي أن للعقل مكانًا في الإدراك، يتيح له أن يحيط بكل شيء بمفرده واستقلاله، فهو متواضع في مجال إدراكه؛ لأنه يوجد فوقه

(١) الاعتصام ٥٦٤/٢.

(٢) آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، د. عمار الطالبي ص (٤٤) الناشر الشركة الوطنية.

(طور عالٍ) عليه، لا يقوى على إدراكه، ولا على أن يطرق بابه، والذين يقدرّون على طرق بابه والنفاذ إليه إنما هم (الأنبياء) الذين أوتوا وسائل توضيح حقائقه والتعبير عن قانونه... أ.هـ.

عقل الإنسان له قدرات هائلة، لكنّ هناك أموراً لا يستقل بها، ولها مصادرها، وقد قام ابن القيم بتفصيل ذلك فقال^(١): إذا كان العقل يدرك بعض الأفعال وقيمتها، فمن أين له معرفة (الله تعالى) بأسمائه وصفاته، والآية التي تعرّف بها الله إلى عبادته، على أسنة رسله، ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه، الذي شرعه لعباده، ومن أين له تفاصيل مواقع محبته ورضاه وسخطه وكرهيته، ومن أين له معرفة ثوابه وعقابه، وما أعد لأولياته، وما أعد لأعدائه، ومقادير الثواب والعقاب وكيفيتهما ودرجاتهما، ومن أين له معرفة الطيب الذي لم يظهر الله عليه أحداً من خلقه إلا من ارتضاه من رسله، إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل، فكيف تكون معرفة حسن بعض الأفعال وقبحها بالعقل، مغنياً عما جاءت به الرسل... أ.هـ.

وأختم بما ذكره ابن خلدون فهو يرى أن العقل هو من أكبر مخلوقات الله لكنه ميزان دقيق وضع لوزن الجواهرات والأحجار الكريمة، فمن أراد أن يستعمله لوزن أشياء ثقيلة كالحجر فإنه يفسده ويعطله.

(١) مفتاح دار السعادة ١١٧/٢.